﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

هـــوانُ الآلـهـة الباطلة دليلُ هوان عبّادِها

لـمّا ذَكَرَتِ الآيات السّابقة حالَ الكفّار، وأنَّهم يعبدون ما لا يسمع، ولا يعقل، ويتركون عبادة مَن يستحق العبادةَ، وهو الذي خلقهم سبحانه، ناسب أن يذكر حال تلك المعبودات الباطلة، في كونها لا تخلق أحقرَ المخلوقاتِ، بل لا يُستنقذ منها ما يسلبه منها، وفي ذلك دليلٌ حسيٌّ عقليٌّ على بطلان معبوداتهم، وأحقيَّة عبادة الله القهّار.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضُرِبَ﴾: (ضرب) أصل واحد، ثم يُستعار ويُحمل عليه فروع كثيرة؛ يقال: هذه الأشياء على هذا الضرب، أي: على هذا المثال[1]، ويطلق الضرب على الوصف، وجعل ابن الجوزي منه قول الله تعالى: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ﴾ [البقرة: 26] أي: يصف مثلًا ما[2]، والمذكور في الآية من ضرب المثل: هو اعتبار الشّيء بغيره وتمثيله به[3].

2) ﴿مَثَلٌ﴾: (مثل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ عَلى مُناظرةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ، ومنه: المثيل بمعنى النّظير والشّبيه، وقول العرب: أمْثَلَ الأميرُ فلانًا؛ إذا قَتَلَهُ قصاصًا، وذلك لأنه فعَلَ به مِثْلَ ما كان فعَلَهُ بمن قَتَلَهُ، ومنه أيضًا: المثلُ المضروبُ؛ لأنَّهُ يُذكَرُ موَرًّى به عن شبيهه في المعنى[4]،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ضرب).
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 402.
(3) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (ضرب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مثل).

والمثلُ القرآني: عبارةٌ عن قول في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة؛ ليُبيِّن أحدهما الآخرَ ويُصَوِّرَهُ وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال[1]، وقد اختُلف في أصل معنى (ضرب المثل) اختلافًا كثيرًا، مرجعه في تصور اختلاف الضّرب، فبسبب ذلك خولف بين تفاسيرها[2].

3) ﴿فَٱسْتَمِعُواْ﴾: (سمع) أصل واحد، وهو إيناس الشيء بالأذن من النّاس وكل ذي أذن، تقول: سمعت الشيء سمعًا[3]، والسّمع: قوَّةٌ في الأذن بها تُدرَكُ الأصواتُ، وفعله يقال له السَّمع، والاستماع: الإصغاء، وكل موضع أثبت الله السّمع للمؤمنين، أو نفاهُ عن الكافرين، أو حثّ على تحريه فالقصد به إلى تصوّر المعنى والتفكّر فيه[4]، ففي هذه الآية يحثّ الله سبحانه النّاس على الاستماع للمثل المضروب والتفكّر فيه والاتّعاظ به.

4) ﴿يَسْلُبْهُمُ﴾: (سلب) أصل واحد، وهو أخذ الشّيء بخفّة واختطاف، يقال سلبته ثوبه سلبًا، والسَّلَبُ: المسلوب[5]، والسَّلْبُ: نزع الشّيء من الغير على القهر[6]، وهو المعنى المقصود في الآية فقد كان الذّباب يأخذ ما يطلون به أصنامهم من الطّيب أو ما يضعونه بين أيديهم من الأكل[7].

5) ﴿يَسْتَنقِذُوهُ﴾: (نقذ) أصل صحيح يدلّ على استخلاص شيء، وأنقذته منه: خَلَّصْتُه، وكُلّ ما أنقذته فهو نَقَذٌ[8]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يس: 43] معناه: لا يَنْجونَ ولا يَتَخَلَّصونَ[9]، وسائر ما في القرآن من التّركيب هو بمعنى استخلاص الشّيء في قوّة من بين ما لا يُرضَى حَوْزُه إيّاه أو تمكُّنُه منه[10]، ومنه في هذه الآية عجز الأصنام عن استخلاص ما أخذه الذّباب منهم من الطّيب والأكل وغيره.

(1) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (مثل).
(2) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (ضرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سمع).
(4) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (ضرب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلب).
(6) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (سلب).
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نقذ).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (نقذ).
(10) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (نقذ).

6) ﴿ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾: (طلب) أصل واحد يدلّ على ابتغاء الشيء، يقال: طلبت الشّيء أطلبه طلبًا، وهذا مطلبي[1]، والطَّلَبُ: الفحص عن وجود الشيء، عينًا كان أو معنًى، قال تعالى: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ۝٤١﴾ [الكهف: 41][2]، وفي هذه الآية كان المشركون يطلون أوثانهم بالزعفران ورؤوسَها بالعسل فيدخل الذباب فيأكله، فلا يمكن للأوثان السَّعي في تحصيل ما أخذه الذباب منهم، فتحقّق الضعف في الأوثان وعابديها والذباب[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العجز في عقول المشركين أوضح من الذباب السّالب

الآيةُ خطابٌ عامٌّ لجميعِ النّاس من اللّه ﷻ، ليستمعوا للمثل الذي وصفه لهم، ويتدبّروه: إن الأصنام والأنداد التي تعبدونها من دون اللّه لن تقدر مجتمعة على خَلْق ذبابة واحدة، فكيف بخلق ما هو أكبر؟ ولا تقدر أن تستخلِصَ ما يَسْلُبه الذّباب منها، فهل بعد ذلك مِن عَجْز؟ فهما ضعيفان معًا: ضَعُفَ الطّالب الّذي هو المعبود من دون اللّه أن يستنقذ ما أخذه الذّباب منه، وضَعُفَ المطلوب الّذي هو الذّباب، فكيف تُتَّخذ هذه الأصنام والأنداد آلهة، وهي بهذا الهوان؟[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستفتاح بالنداء:

تنبيه مشغول البال إلى ما سيُلقى إليه من الأمثال

استفتحتِ الآية بأسلوبِ النِّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، والغرض منه تنبيه السّامع لإيقاظ ذهنه واستحضار قلبه، فإنّ الحكيم إذا خاطب من يكون محلّ الغفلة أو مشغول البال يُقَدِّمُ على الكلام المقصود شيئًا ليلتفت المخاطب بسببه إليه، ويُقبِلَ بقلبه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طلب).
(2) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (طلب).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (طلب).
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 341.

عليه، فاختير النِّداء في هذه الآية، تنبيهًا له على أنّ ما سيُلقى إليه أمر مهمّ[1].

دلالة النّكرة المقصودة (أيّ):

بُعدُ المشركين وشديدُ غفلتِهم يحتاجُ إلى مهمازِ التَّنبيه

جاء النداء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بأداة البعيد (يا)، ثمَّ جيء بـ (أيّ) توصلًا لنداء ما فيه (أل)، وقد ذهب جمهور النحاة إلى أن معنى المنادى المعرف بـ (أل) والنّكرة المقصودة واحد لأنّهما معرفة، فقولك: (يا رجلُ) كقولك: (يا أيّها الرجل)[2]، وأبدى بعض العلماء فرقًا بينهما، فإنّ المنادى في قولك: (يا رجل) نكرة في الأصل فقُصِدَ بالنّداء، وأمّا المعرّف بـ (أل) فهو معرفة، قبل قصده بالنّداء[3]، وكذلك فإنّ قولك: (يا رجل) يدلّ على مجرّد النّداء، أمّا قولك: (يا أيّها الرجل) فيدلّ على مجرَّد النِّداءِ أيضًا مع الإنباءِ عن خَطَرِ المنادى له، أو غفلة المنادى[4]، فاستعمل (أيّ) في هذه لفظ (أيها) تنبيهًا للدّلالة على غفلة المشركين.

معنى التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

خطاب القرآن يعمُّ جنسَ النّاس ويدخل المقصود بالسّياق دخولًا أوّليًّا

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ يحتمل العهد أو الجنس، فإن كان للعهد فالخطاب في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خاصٌّ بالمشركين؛ لأنهّم المقصودون بالردّ والزجر بقرينة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ على قراءة الجمهور بتاء الخطاب، كما أنّ السياق وهو عبادة الأوثان يُقوّي أن يكون الخطابُ للمشركين[5].

وإن كان للجنس فإنّ هذا اللفظ يعمّ العالَم كافرهم ومؤمنهم[6]، ويمكن الجمع بينهما بأن يُقال: إنّ الخطاب في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 23.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 310.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 330.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 189.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5029، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 337.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 133.

يشمل النّاس عامّة، ويدخل في ذلك المشركون دخولًا أوَّليًّا لعموم الاتّعاظ بالقرآن، فيتقوّى حينئذٍ القول بأنَّ التَّعريف للجنسِ.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿ضُرِبَ﴾:

براعة الاحتمال بين الكناية والاستعارة

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعلِ ﴿ضُرِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾، كناية عن الثَّبات واللزوم، ويحتمل أن يكون (ضَرْبُ المثَلِ) من الضَّربِ الّذي هو المِثْلُ؛ ففيه تقريبُ حالٍ بحالٍ للتبيين[1]، كما يحتمل أن يكون مجازًا عن الوضع والجعل، استُعير الضرب للقول والذِّكر تشبيهًا بوضع الشّيء بشدّة من قولهم: ضَرَبَ خَيْمَةً، وضَرَبَ بيتًا على سبيل الاستعارة المكنية[2].

دلالة استعمال صيغة الماضي:

تقريب زمن الماضي لاستثارة الأذهان وجذب الانتباه

آثر النَّظم الكريم استعمال صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾، والمثل سيُذكر بعد الفعل الماضي ﴿ضُرِبَ﴾، والله تعالى هو المتكلِّم بهذا الكلام ابتداءً، وذلك لنكتة تقريب زمن الماضي من الحال والحاضر؛ كقوله: ﴿لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ [النساء: 9]، أي لو قاربوا أن يتركوا، وذلك تنبيه للسّامعين بأن يتهيَّؤوا لتلقّي هذا المثل، لما هو معروف لدى البلغاء من استشرافهم للأمثال ومواقعها[3].

نكتةُ بناء الفعل للمفعول:

الغرض من المثل تعقّل ما فيه لا معرفة قائله

بُني فعل ﴿ضُرِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ للمفعول، فلم يُصرّح بالفاعل، بعكس ما في المواضع الأخرى التي صُرِّحَ فيها بفاعل ضَرْبِ المثَلِ نحو قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: 26]، وقوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 133.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 337.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 251، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 337.

عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ [النحل: 75]، وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا﴾ [الزمر: 29]، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ [النحل: 76]؛ إذْ أُسْنِدَ في تلك المواضع وغيرها ضرب المثل إلى الله ﷻ؛ وذلك لأنّ المقصود هنا نسج التّركيب على إيجازٍ صالح لإفادة احتمالين:

أحدهما: أن يُقَدَّرَ الفاعل وهو الله تعالى، وأن يكون المثل تشبيهًا تمثيليًّا، أي: أوضح الله تمثيلًا يوضِّح حال الأصنام في فرط العجز عن إيجاد أضعف المخلوقات كما هو مشاهد لكلِّ أحد.

والآخر: أن يُقَدَّرَ الفاعل، وهو المشركون، ويكون المثل بمعنى المماثل، أي جَعَلوا أصنامهم مماثلة لله تعالى في الإلهيّة[1]، وعلى كلا الاحتمالين فإنّ المقصود من المثل تعقُّله لا قائلُه[2].

معنى المثل وأثره البياني:

استُعملت مفردة ﴿مَثَلٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ﴾؛ لبلاغتها وقوّة تأثيرها في ذهنِ المتلقّي، والمَثَلُ بمعنى المِثْل، تقولُ: زيدٌ مثلُ عمرٍو ومِثله ومَثيله، كما تقول: شِبْهُهُ وشَبَهُهُ وشَبيهُهُ، ثم قالوا على سبيل الاستعارة لجملةٍ من الكلام مستغربةٍ مستفصحةٍ متلقّاةٍ بالرضا والقبول، أهلٍ للتّسيير والإرسال: إنَّها مَثَلٌ؛ لأنّهم جعلوا مضربها مثلًا لموردها، ثُم استعاروا هذا المستعار للقصّةِ أو الحالةِ المستغربة لتماثلهما في الغرابة[3].

استعارة المثل للمعاني البليغة والكلمات الجزلة

غرضُ تنكيرِ ﴿مَثَلٌ﴾:

جاء لفظ المثل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ﴾ نكرةً غير معرَّف ولا مجموعٍ، وغرض تنكيره: التنويع[4]، فهو مثلٌ من جملة

تعظيمُ الأمثالِ تفخيمٌ لمعانيها وتنويهٌ بحقائقها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 338.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 95.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 530، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 362.

الأمثال التي يضربها الله ﷻ برهانًا على بطلان عبادة الأصنام؛ لأنها عاجزة محتاجة، والمعبود قادر غير عاجز[1].

كما أنّ التّنكير يدلّ على الإبهام، والإبهام له علاقة مباشرة بالتّعظيم والتّفخيم، فإنّ مَن أراد أن يُعظّم شيئًا أبهمه بحيث لا يُكتَنَهُ وصفه.

نوعُ الفاءِ ومعناها:

الـفـاءُ إمّـا أن تـكـونَ تفريعيَّة أو فصيحة

عطف قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ على ما قبله وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ﴾ للتّفريع، فقد فُرِّعَ الأمر بالاستماع على التّهيئة لتلقي هذا المثل، وذلك لاسترعاءِ الأسماع وإلقاء الشَّراشِرِ لوعيه وترقّب بيان إجماله، توخّيًا للتفطّن لمفاد هذا المثل مما يُبطل دعوى الشَرِكَةِ لله في الإلهيّة[2]، ويصح أن تكون الفاءُ فصيحة، أفصحت عن مقدَّر محذوف، والتَّقدير: (إن أردتم الحقَّ فاستمعوا له).

نكتةُ إيثار صيغة الافتعال:

السّماع النّافع ما صاحبه تدبّرٌ مـثـمـر وتـفـكّـر مُشعر

آثر النَّظم الكريمُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ صيغة الافتعال في فعل ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ﴾؛ لما تُفيده صيغة (افتعل) من تكلّف الفعل، فأمر الله سبحانه النّاس بالاستماع للمثلِ نفسِه استماعَ تدبّر وتفكُّرٍ؛ لأنّ نفس السّماع لا ينفع، وإنّما ينفع التدبّر[3] معه، فهو أمرٌ بالسَّماعِ على هيئةٍ مخصوصةٍ وهي التَّفاعل مع المسموعِ، ولو قال: (اسمعوا) لما تحقَّق إلّا مطلق الأمر بالسَّماعِ.

توجيه غرضِ الأمرِ:

تنوُّعُ النكاتِ ثراءٌ بتعدُّدِ الاحتمال

إذا جُعل ضارب المثل الله ﷻ، كان الأمر ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ﴾ مستعملًا في التّحريض على التدبّر، وجعل الضمير في شبه الجملة ﴿لَهُۥٓۚ﴾ عائدًا على المثل؛ لأنّ المثل على هذا الوجه من قبيل الألفاظ المسموعة.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5029.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 340.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 251.

وإذا جُعل ضارب المثل المشركون الذين جعلوا أصنامهم مماثلةً لله في الإلهيّة، كان الأمر ﴿فَٱسْتَمِعُواْ﴾ مستعملًا في التّعجيب من شركهم، وجعل الضّمير في شبه الجملة ﴿لَهُۥٓ﴾ عائدًا على الضرب المتقدّم في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ على طريقة ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8]، أي: استمعوا لما يدلّ على الضّرب من الألفاظ، فيُقدَّر مضاف بقرينة ﴿فَٱسْتَمِعُواْ﴾ لأنّ المسموع لا يكون إلا ألفاظًا، أي: استمعوا لما يدل على ضرب المثل المتعجَّبِ منه في حماقة ضاربيه[1].

غرضُ فصل الجملة:

الجمل المفصولة تقع موقع البيانِ والتّعليل

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ عمّا قبله وهو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾؛ لوجود كمال الاتّصال بينهما، وهو اتحاد الجملتين اتّحادًا تامًّا وامتزاجهما امتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثّانية من الأولى منزلة نفسها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ بيانًا للمثل وتفسيرًا له على القول الأوّل بأنّ الضارب له هو الله سبحانه، وتعليلًا لبطلان جعلهم الأصنامَ مِثلَ الله سبحانه في استحقاق العبادةِ على القول الثاني بأنّ الضارب له هم المشركون[3].

بلاغة التوكيد الخبريّ:

تنزيل المخاطبين منزلة المنكرين لإشراكهم بربّ العالمين

تضمّن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ خبرًا إنكاريًّا، فقد أكّد إثبات الخبر بحرف توكيد الإثبات وهو ﴿إِنَّ﴾، وأكّد ما فيه من النّفي بحرف توكيد النّفي ﴿لَن﴾؛ لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين لمضمون الخبر؛ لأنّ جعلهم الأصنام آلهة يقتضي إثباتهم الخلق إليها، وقد نُفيَ عنها الخلق في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 339.
(2) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 339.

المستقبل؛ لأنّه أظهر في إقحام الذين ادّعوا لها الإلهيّة؛ لأنّ نفي أن تخلق في المستقبل يقتضي نفي ذلك في الماضي بالأحرى؛ لأنّ الّذي يفعل شيئًا يكون فعله من بعد أيسر عليه[1].

نكتة التّعبير بالاسم الموصول:

تقريع المشركين بدعاء غير ربّ العالمين

عُدِلَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عن الاسم الظّاهر إلى الموصول؛ لتقريع المشركين بما في حيّز الصّلة، وهو دعاء غير الله والإشراك به مع الأصنام العاجزة عن أدنى الأمور، فذمّهم بذلك من أوّل الأمر قبل بيان عجز آلهتهم، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: 5].

نكتةُ استعمال مفردة الدعاء:

أبرز مظاهر العبادة عند المشركين هي الدعاء

أوثِرَ استعمال ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ومعناه تعبدون، فالدّعاء هو العبادة؛ لأنّها تستلزم دعاء المعبود، فالدّعاء يُطلق على سؤال العبد من الله حاجتَهُ، وهو ظاهر معناه في اللغة، ويطلق على عبادة الله عن طريق الكناية؛ لأنّ العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرّع إليه، وهذا إطلاق أقلّ شيوعًا من الأوّل، فأطلق الدُّعاء باعتباره أظهر عبادات المشركين، إذ أغلب ما يقومون به في عباداتهم هو التّوجّه إلى الأصنام بالدُّعاء.

دلالة صيغة مضارع ﴿تَدۡعُونَ﴾:

استمرارُ أهل الباطلِ في باطلهم دليل العناد والمكابرة

عُبِّرَ بصيغة المضارع ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دون غيره من الأزمنة؛ لما يفيده المضارع من افتراض تَكَرُّرِ الحدث وتجدّده واستمراره[2]، وفي ذلك دلالة على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 341.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.

تكرّر دعائهم لآلهتهم الباطلة، وتجدُّد ذلك منهم دون أن يحصلوا منها على أيّ نفع أو دفع أيِّ ضرٍّ، وفي تكرار ذلك منهم، زيادة في التَّوبيخ والتَّقريع لهم.

توجيه القراءات القرآنيَّة ﴿تَدْعُونَ﴾ وبلاغتها:

إثراء المعاني الدّلالية بتنوّع القراءات القرآنية

تنوّعت القراءة في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فقرأ يعقوب بالغيب ﴿يَدْعُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخطاب[1]، فحجَّة من قرأ: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء قوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ [الحج: 72]، فيكون المقصود المشركين، حتّى لو قيل بأنّ المقصود بقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميع النّاس لأنّهم علموا بحال فريق منهم وهم أهل الشرك، والتّقدير: (إنّ الذين يدعون هم فريق منكم)[2].

وحجّة الجمهور في القراءة بالتّاء قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾، وهذا إليه أقرب من قوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ [الحج: 72] والأقرب أولى، على أنّ المراد بالناس في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خصوص المشركين، فيكون التّقدير: (وأنّ ما تدعون أيّها المشركون، لِأنّ المُسلمين لا يخاطبون بذلك)[3].

فائدة التقييد بالجارّ والمجرور:

كلُّ إلهٍ باطل فهو دون الله تعالى في الاستحقاقِ

قُيِّد فعل الدعاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالجارّ والمجرور: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وذلك لأنه أنكر عليهم عبادة آلهة باطلة في أدنى المراتب عوض عبادة الإله الحقّ سبحانه، وللإعلام بأنَّ كلَّ ما يُدعى من دون الله تعالى فهو دون الله تعالى.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتها:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابتدائية؛ بمعنى أنهم

(1) ابن الجزري، النشر: 02/ 327.
(2) الفارسيّ، الحجّة: 5/ 285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 341.
(3) الفارسيّ، الحجّة: 5/ 285، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 552.

مبتدئون من جانب غير جانب اللّه، فهم يعبدون آلهة مبتدئين إيّاهم من ناحية غير اللّه تعالى؛ لأنّهم حين يعبدونهم قد شُغِلوا بعبادتهم ففرّطوا في عبادة اللّه المستحقّ للعبادة، وتجاوزوا حقّ إلهيّته في أحوال كثيرة وأوقات وفيرة[1]؛ فكلُّ آلهةٍ من دون اللّه تعالى هي من الأغيار الباطلة، والأوثان الهابطة.

دَلالَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالَةِ:

لـفـظُ الـجـلالـة والمهابة إذا حضر مـعـانـي غـيره تزول بلا أثر

آثرتِ الآية ذكر لفظ الجلالة دون الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه الأنسب بالسياق الذي هو توبيخهم على ترك عبادة الإله الخالق المستوجب توحيده بالألوهيّة، وعلى عبادة الأصنام العاجزة أمام أضعف مخلوق كالذباب، فاللّه الملك أجلُّ وأعلى من هذه الأصنام الّتي هم بها مغترّون، ولما يدَّعون فيها مفترون، لأنّ سلب القدرة عنها يبين أنّها في أدنى المراتب، فجاء النّظم باسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على أنّه الإله الحقّ في أعلى المراتب، وأنّه لا شَرِكَةَ لغيرِهِ في الإلهيّة بوجه من الوجوه[2].

نكتة النفي بأداة ﴿لَن﴾:

التّأكيد على عجز الأوثان في الحال والاستقبال

أوثر في قوله تعالى: ﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ استعمال حرف النفي ﴿لَن﴾ دون غيره؛ لما يفيده هذا الحرف من نفي المستقبل المؤكد، وهو لا يدلّ على الامتناع لأنّه لا يستلزمه فيكون لازمًا، واللّازم لا يدلّ على الملزوم، ولكن يحتمله، ولمّا كان محتملًا له حُمِلَ عليه لقرينة سياق الكلام؛ لأنّه إن أمكن ذلك منهم لا يحصلُ الاستبعادُ المطلوبُ والمبالغةُ في تجهيلهم واستركاك عقولهم؛ لأنّهم مع اجتماعهم وتعاونهم لا يقدرون على أقلِّ ما خلقه اللّه تعالى وأذلّه وأحقره، وأدلّ من ذلك على عجزهم وانتفاء قُدرتهم، أنّ هذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 437.

الحقير الذليل لو اختطف منهم شيئًا لم يقدروا على استخلاصه ولو اجتمعوا له[1].

بلاغة التمثيل بالذباب:

ذُكر الذباب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾، وهو من أضعف المخلوقات الّتي فيها الحياة المشاهدة؛ مبالغةً في بيان عجز آلهتهم، فقد بدأ تعالى بنفي الخلق والاختراع عنهم من حيث هي صفة ثابتة له مختصّة به، فكأنّه قال: ليس لهم صفتي، فهذه الأصنام وإن اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودًا؟![2].

التمثيل بالذباب تهوينٌ للمشركين وتنفيرٌ من معبوداتهم

نكتة تنكير ﴿ذُبَابٗا﴾:

جاء لفظ الذباب نكرة ﴿ذُبَابٗا﴾ وذلك لغرض التقليل، فالأصنام عاجزة عن خلق أقلّ شيء ولو كان ذبابًا، فهو من أحقر المخلوقات التي فيها الحياة المشاهدة[3]، هذا وقد جعل بعض العلماء لفظ (ذبابا) واحدًا لا جمعًا، فيُقال: هذا ذُباب واحد، وثلاثة أذِبَّة، لأقلّ العدد ولأكثره ذُباب، وقول النّاس: ذُبابة خطأ[4]، فإن صحّ هذا فيُضاف الإفراد إلى التنكير مبالغة في الدّلالة على التّقليل.

من عجز عن القليل فهو عن سواه أعجز

نوعُ الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ للحال، أي: في حال اجتماعهم لن يخلقوا ذبابًا، كأنّه قال: مستحيل أن يخلقوا الذّباب مشروطًا عليهم اجتماعهم جميعًا لخلقه وتعاونهم عليه، وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم، فهم لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا

إذا ثبت العجزُ اجتماعًا فثبوتُه انفرادًا أشدُّ وأوضح

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 531.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 134، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 341.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 134، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.

منفردين[1]، أو تكون الواو عاطفة على حال محذوفة، كأنَّه قيل: لن يخلقوا ذبابًا على كلِّ حالٍ ولو في هذه الحال التي كانت تقتضي أن يخلقوا لأجل اجتماعهم، ولكنّه ليس في مقدورهم ذلك[2].

دلالة (لو) ومعناها في السياق:

تأكيدُ المعاني الواضحات دليلُ ضعفِ الدعاوى الواهيات

حرف (لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ حرف شرط، وحذف جوابه لدلالة ما قبله عليه، ومثل هذا الاستعمال شائعٌ في كلام العرب، ولكثرته قال كثير من النحاة: إنَّ (لو) و(إن) الشرطيتين في مثله مجرّدتان عن معنى الشرط لا يُقصد بهما إلّا المبالغة، ولقّبوهما بالوصليتين: أي أنهما لمجرد الوصل والربط في مقام التأكيد، والشّرط الذي بعدها شرط مفروض هو غاية ما يُتوقَّع معه انتفاء الحكم الّذي قبلها، فيذكره المتكلم لقصد تحقق الحكم في سائر الأحوال، فالأصنام لو لم يجتمعوا على خلق الذباب لن يخلقوه، ولو اجتمعوا له لن يخلقوه، كأنَّه قيل: لن يخلقوا ذبابًا على كلِّ حالٍ، فالجواب المقدر في موضع حال جيء بها للمبالغة في تعجيزهم، فهم لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا منفردين[3].

نكتة التعبير عن الأوثان بضمير العقلاء:

الشِّرك يقود إلى حماقةِ الأوهام وتفاهة الظُّنون

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ ذكر الأوثان الّتي يعبدها المشركون من دون الله تعالى بضمير العقلاء؛ جريًا على زعمهم وتفكيرهم مع أنّهم جماد غير أحياء؛ فضلًا عن أن يكونوا عاجزين[4]، ويحتمل أن يكون من باب تشبيههم بالعقلاء لمّا نسبوا إليها بعض ما يُنسب للعقلاء من القدرة، ففيه إثبات العجز ولو شابهوا العقلاء، وهذا زيادة في التَّهكُّم بمن يعبدها.

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 171، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 1/ 61.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 538.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 03/ 306، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 1/ 61.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5029.

معنى العطف وبلاغته:

التَّدرج في إثبات الحجج لدفع الشطط واللجج

عُطف قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ﴾ على ما قبله بحرف الواو الدالّ على الجمع والاقتران، من باب عطف بيان ذل الأصنام على حجّة عجزهم عن الخلق، كأنّه قيل: إنَّ أمر الخلق والإيجاد أعظم وأكبر وأبلغ من أن يُتكلّم فيه، فإنّ الذباب إن سَلب منها شيئًا، فهي لا تقدر على استنقاذ ذلك الشّيء من الذّباب[1]، فهو من عطف البرهان الأوضح على الواضح، والأسهل على المستحيل، استنزالًا مع الخصم في بيان الواقع المشاهد، وإثبات ركاكة العقل المشاهِد.

نكتة استعمال (إنْ):

افتراضُ الأحداث يُؤكِّد عجز الأوثان وبلاهة عابديها

استعمل النَّظم (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ﴾ وهو حرف شرط جازم، وهو يرد عمومًا في المعاني المحتملة الوقوع، والمشكوك في حصولها، والموهومة والنادرة والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى[2]، واستعماله في الآيةِ لبيانِ أنَّ هذا السَّلب غير مُتحقق الوقوع، وعلى فرض وقوعه فإنَّ الحال عدم الاستنقاذ مما سلب الذُّباب؛ فهو مبالغةٌ في إثبات العجز، لإقامة البرهان في عقول المشركين.

بلاغة أسلوب الشرط:

التَّعريض بالعقول الخربة يسلب طمأنينة القلوب النجسة

ورد أسلوب الشرط: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾، لغرضِ تعليق مضمون الجواب على دوام حصول مضمون الشرط؛ فيحصل الثاني بحصول الأوّل، فكلّما سلب الذّباب الأصنام شيئًا من الطّيب الذي كان المشركون يطلونها به عجزت هذه الأصنام عن استنقاذه واسترجاعه منه مع ضعفه، ولقد جُهِّل المشركون بهذا المثل غايةَ التَّجهيلِ في إشراكِهم باللّه القادرِ تماثيلَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 252.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 69.

هي أعجزُ الأشياءِ، وبيّن ذلك بأنَّها لا تقدرُ على أقلّ الأحياءِ وأذلِّها ولو اتَّفقت عليه، بل لا تقوى على مقاومةِ هذا الأقلِّ الأذلِّ وتعجز عن ذبِّه عن نفسِها واستنقاذِ ما يختطفُه منها[1]، فكلُّ برهانٍ يُذكر يُثبت استركاك عقول المخاطبين، ويسلب طمأنينة سادة المشركين، وفيه تعريض بليغٌ بهم.

سرّ التمثيل بالذباب:

اجتماع الضعف والحقارة واستحالة الخلاص يُبرهن على هوان الأصنام

أوثر التمثيل بالذُّباب في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾ دون غيره من المخلوقات؛ لوجوده واجتماعه على رؤوس الأصنام، ولرغبة المشركين الخلاص منه، فقد كان المشركون كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يطلون الأوثان بالزّعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها، فيدخل الذّباب من الكوى فيأكله، وروي أيضًا أنّهم كانوا يُضَمِّخونَها بأنواع الطّيبِ فكان الذباب يَذْهَبُ بذلك، وكانوا متألّين من هذه الجهة فجُعِلت مثلًا[2] مصاحبًا لهم في كلِّ نادٍ، فاختارت الآية أكثر ما يُؤذيهم، وأحقر ما يزعجهم، وأشدَّ الأمور استحالةً في الخلاص منها، ليصحبهم الشُّعور بالضعف والعجز، وقال بعضهم: إنّ جهة التمثيل به هو الوقاحة في الاستلاب، فلو كانت وقاحته في الأسد لم ينج منه أحد، ولكن اقتضت الحكمة أن تصحب قوّة الأسد النُّفرة، ووقاحة الذباب الضّعف[3].

بلاغةُ إظهار ما حقُّه الإضمار:

المبالغة في بيان عجز الأوثان ورميها بالذلّ والهوان

تكرّر لفظ الذباب في قوله تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾، وحقه الإضمار، فلم يقل: (وإن يسلبهم شيئًا)، ونكتة الإظهار هي إظهار حقارته

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 121.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 134، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 192.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.

كلّ الإظهار[1]، وبالتّالي المبالغة في بيان عجز الأوثان أمام أضعف المخلوقات؛ فإنَّ الانزعاج من الذباب ظاهر، فكان ذكره مظهرًا زيادةً في البيانِ، ودفعًا للأوهام.

معنى التعريف في لفظِ ﴿ٱلذُّبَابُ﴾:

المعنى واحدٌ بين تعريف الجنس وتعريف العهد

جاء لفظ ﴿ٱلذُّبَابُ﴾ معرَّفًا بـ (أل) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ الدالّة على تعريف الجنس المقتضي للعموم، أي: جنس الذباب المعلوم عندهم، الذي كان يسلبهم ما يطلون به أصنامهم من الطّيب، أو ما يضعونه بين أيديها من الأكل أو غيره.

ويحتمل أن تكون (ال) في لفظِ الذباب للعهد الذكري، فقد تقدّم ذكر الذباب في هذه الآية نكرة في قوله: ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾، فأعيد بعدها معرفة في قوله: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ على حدّ قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: 15 - 16]، والمعنى واحد.

غرض تنكير وإفراد ﴿شَيْـًٔا﴾:

العجز عن استرجاع قليل الأشياء فضلًا عن كثيرها

ورد لفظ ﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ نكرةً مفردًا، والغرض البلاغي من تنكيره وإفراده هو التّقليل، إضافة إلى أنّ كلمة (شيء) لتوغّلها في إبهام جنس ما تُضاف إليه، أو جنس الموجود مطلقًا مفيدة للتّقليل غالبًا؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: 20][2]، والمعنى أنّه إن يسلبهم الذّباب شيئًا أيًّا كان وصفه، أو حجمه، ممّا يُطلون به أصنامهم من الطّيب أو ما يضعونه بين أيديهم من الأكل أو غيره ما استطاعوا استنقاذه منه[3]؛ فهو لتوكيدِ العجز.

(1) القونوي، الحاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.

نكتةُ استعمال حرف النفي ﴿لَّا﴾:

استمرار العجز توكيدٌ للهوان وتشكيكٌ بالأصنام

أوثر استعمالُ حرف النفي ﴿لَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾، وهو يدخل على الفعل المضارع، فلا يقيِّده بزمن على الأرجح، بل لنفي الفعل نفيًا مطلقًا، إذا خلا النَّظم من القرائن المقيِّدة، وهي تفيد هنا الاستمرار، بمعنى استمرار عجز الأوثان عن استنقاذ شيء من الذباب في جميع الأزمنة[1]، وهو كذلك مفيدٌ لتوكيد العجز والهوان.

بلاغة التعريض في لفظ (الاستنقاذ):

عجز الأوثان عن إنقاذ المسلوب برهانٌ على عجزِها عن تلبية عابديها

آثر النظم الكريم اختيار مفردة ﴿يَسْتَنقِذُوهُ﴾، وأصله (نقذ) وهو يدلّ على استخلاص شيء[2]، أي: لا يستطيعون بأكثر جهد وطلب أن ينقذوه منه؛ لأنَّ الأوثان لا قوّة لها في أيّ ناحية، فهي جماد لا يتحرّك، ولكن الوهم هو الّذي جعل لها قوّة في نظرهم الّذي لا يبصر، وسَوَّل لهم الشيطان عبادتها[3]، وفيه تعريضٌ بأنَّ هذه الآلهة لا تستطيع أن تستنقذ المسلوب في الدُّنيا لنفسِها، فكيف تستنقذ ما يطلبه أولئك الحمقى في دفع المضار، وتحصيل المنافع؟!

دلالة السين والتّاء في ﴿يَسْتَنقِذُوهُ﴾:

السّين والتاء في فعل ﴿يَسْتَنقِذُوهُ﴾ للطلب والتوكيد، أي: لا يستطيعون ذلك مهما طلبوه، فإنَّ الطلب منفيٌّ؛ لأنَّ القدرة معدومة، وطلب المعدوم معدوم.

بلاغة الطباق وغرضه:

تصوير عجز الأصنام بذكر الضدّين وتقابل المختلفين

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾ طباقًا بديعًا بين لفظتي ﴿يَسْلُبْهُمُ﴾، و﴿يَسْتَنقِذُوهُ﴾، وهو محسّن معنوي يوضّح عجز الأوثان عن إنقاذ ما سلبه أضعف المخلوقات،

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 330.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقذ).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5030.

فبين تقابل السَّلب والنَّقَذِ وتخالفهما تضادّ يثير الذّهن ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حسنًا وطرافة، كما يقوي المعنى إذ بضدّها تتمايز الأشياء.

نوعُ حرف (من) ودلالتها:

حرف (من) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ لابتداءِ الغاية، بمعنى لا يستنقذون ابتداءً من الذباب ما سلبه منهم، فالضمير عائد على الذباب.

براعة الإيضاح بعد الإبهام:

تشويق المستمعين لمعرفة الخبر اليقين بعد النظم المبين

يظهر في هذه الآية فنٌّ من فنون الإطناب، وهو براعة الإيضاح بعد الإبهام، حيث استهلّت الآية بالإبهام في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾؛ إذ ألقى المعنى على سبيل الإجمال؛ لما فيه من تعظيم؛ كي يخلق لدى المستمع تشويقًا إلى معرفته على سبيل التّفصيل، ثم جاء الإيضاح ببيان المراد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾، فيَرِد الكلامُ على نفسٍ متشوِّقةٍ لمعرفته فيحصل المراد من التّأثير.

علّة الفصل وبلاغته:

بيانُ ضعف الجهتين احتراسٌ عن توهم الباطل

فُصل قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ عمّا قبله؛ لأنّه خرج مخرج التذييل، وفي التذييل معنى البيان والتوكيد؛ فعندما تحدّى الله المشركين بعجز أوثانِهم أمام الذّباب، ربّما أفهم هذا قوّة الذّباب، فبيّن أنّ المقصود غير ذلك وأنّهما اجتمعا في الضعف، وإن كانت الأصنام أضعف بدرجات[1]، ففيه كذلك احتراسٌ بديع.

دلالة التّعبير بصيغة الماضي:

ذمّ الأوثان وعابديها بتحقّق الضّعف والهوان

استعمل النَّظم الكريم صيغةَ الماضي في قولِه تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾؛ للدّلالة على تحقّق صفة الضعف ورسوخها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.

واستمرارها في الذباب والأوثان، وإن كانت الأوثان أضعف من الذباب؛ لأنّه مخلوق حيّ يقدر على سلبها بإرادة الله تعالى، وهي جماد لا حياة فيها ولا قوّة.

معنى التعريف في ﴿ٱلطَّالِبُ﴾ و﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾:

تجهيل المشركين وتحقير معبوداتهم جمعًا لأغراض السياق

عُرّف لفظا ﴿ٱلطَّالِبُ﴾ و﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، والتعريف فيهما للعهد التقديري[1]، فقد تقدّم في السّياق ذكرهما، والطّالِبُ عند أكثر العلماء الصنم يَطْلُب ما سُلبَ منه، والمَطْلوبُ هو الذُّباب بما سَلَبَ، وجَوَّزَ بعض السّلف أنْ يُراد بالطّالب: عابد الصنم، وبالمطلوب معبوده، وقيل: هو أنسب بالسياق؛ لأنّه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم، فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التذييل، وقد اختار الوجه الأوّل الزمخشريّ لما فيه من التّهكم، بجعل الصنم طالبًا على الفرض تهكّمًا، وأنّه أضعف من الذّباب لأنّه مسلوب وجماد، وذلك حيوان بخلافه[2].

براعة العطف بين المتناقضين:

التعريضُ بسفاهة عقول المشركين وطيش أفهامهم

عُطف لفظ ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ على لفظ ﴿ٱلطَّالِبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ بحرف الواو الدالّ على الجمع والاقتران، ونكتة ذلك تسوية الصنم بالذّباب في الضّعف، بل إنَّ الطّالبَ - وهو الصنم - أضعفُ وأحقر؛ فإنّ الذُّبابَ حيوان غالب، والصنم جماد مغلوب، فكيف بمن يدعو الجماد المغلوب[3]؛ ففيه تعريضٌ بديع بالمشركين، بأنَّه على قانون القوَّة والقدرة؛ فالذباب أولى بالعبادةِ من تلك الأصنام، وهذا في غاية تسفيه العقول، وتطييش الفهوم.

فنُّ الجناس:

جناس الإلحاق بما اتّفق في أصل الاشتقاق

في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ جناس اشتقاق،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 532.
(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 7/ 275.
(3) القاسمي، محاسن التّأويل: 7/ 275، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5030.

حيث توافقت كلمتا ﴿ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ في الحروف الأصول وهي (طلب)، وهو ملحق بالجناس الاصطلاحيّ؛ لأنَّ كثيرًا ما يلحق بالتجنيس الكلمتان الراجعتان إلى أصلٍ واحدٍ بالاشتقاق، لما فيه من المسامحة[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكميَّةِ:

في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ مجازٌ، وذلك على القول المشهور بأنّ المراد بالطّالب: الصّنم، فشبَّه الصنم بالطالب العاقل من حيث إنّه لو طَلب أن يستنقِذَ منه ما استُلِبَه لعجَزَ عنه، وكونُ الصّنم طالبًا ليس حقيقة بل هو على سبيل التّقدير، فالمجاز فيه حاصل؛ لأنّ الوثن لا يصحّ أن يكون ضعيفًا، لأنّ الضّعف لا يكون إلّا في ذي قوَّة[2]، فجعله طالبًا من قبل الاستعارة التهكّمية[3]، وغرض الاستعارة التَّهكميَّة هو التعريض بعقولِ المشركين.

الضَّعف وصفٌ يلحق ذوي القوّة لا الجمادات الهامدة

بلاغةُ التذييل في الفاصلة:

ختمت الآية بجملة التَّذييلِ: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾، وهذه الجملة تذييل وفذلكة للغرض من التّمثيل، أي: ضعف الصنم والذباب، أو: ضَعُف الدّاعي والمدعوُّ، إشارة إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾، أي: ضَعُفْتم أنتم في دعوتهم آلهة، وضعفت الأصنام عن صفات الإله، وهذه الجملة كلام أرسل مثلًا، وذلك من بلاغة الكلام[4].

الكلمات الجامعةُ أمثالٌ سائرة وحكمٌ دائرة

بلاغة الاستعارة التمثيليَّة:

شُبِّهَتِ الأصنام المتعددة المتفرقة في قبائل العرب بعظماء – أي: عند عابديها – وشُبِّهَتْ هيئتُها في العجز بهيئة ناس تعذّر عليهم خلق

تصوير عجز الأصنام بأروع الأمثال وأدق الأحوال

(1) عربشاه، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 464.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 252.
(3) القاسمي، محاسن التّأويل: 7/ 275.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 342.

أضعف المخلوقات، وهو الذّباب، بَلْهَ المخلوقات العظيمة كالسّماوات والأرض، وقد دلّ إسناد نفي الخلق إليهم ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ على تشبيههم بذوي الإرادة؛ لأنّ نفي الخلق يقتضي محاولة إيجاده، ولو فُرض أنّ الذّباب سلبَهُم شيئًا لم يستطيعوا أخذه منه، ودليل ذلك مشاهدة عدم تحرّكهم، فكما عجزت عن إيجاد أضعف الخلق وعن دفع أضعف المخلوقات عنها فكيف توسم بالإلهية؟ ورمز إلى الهيئة المشبه بها بذكر لوازم أركان التشبيه من قوله: ﴿لَن يَخْلُقُواْ﴾، وقوله: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾، فحصل تشبيه هيئة الأصنام في عجزها بما دون هيئة أضعف المخلوقات فكانت تمثيلية مكنية[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّمع والاستماع والإصغاء والإنصات:

الاستماع طلب السمع بتمييز، والإصغاء استماع مع تفاعل، والإنصات تجرُّد للمسموع

تشترك هذه الألفاظ جميعًا في أنّها متعلّقة بجارحة الأذن والسّمع، وتختلف فيما بينها في أنّ السّمع هو حاسّة إدراك المسموع، والسّمع أيضًا اسم الآلة التي يُسمع بها، وقد يكون التقاط الصّوت عفويًّا بدون قصد المستمع، أمّا (الاستماع) فيزيد على السمع بالسّين والتّاء الدّالة على الطّلب، فهو فعل يقصد منه تكلّف السّمع وتمييزه جيدًا.

أمّا الإصغاء فهو طلب إدراك المسموع بإمالة السّمع إليه يقال: صغا يصغو إذا مال وأصغى غيره، وفي القرآن: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: 4] أي: مالت، وصَغْوُكَ مع فُلان أي مَيْلُكَ[2]، ويشترط في (الإصغاء) الانتباه وتفاعل القلب والمشاعر، وأمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 340.
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 284.

(الإنصات) فأصل مادته (نَصَتَ)، وهو قائم على السّكوت[1]، وهو شرط للإصغاء الجيّد إذ يتطلّب إلغاءَ الضّوضاء، وإسكات بقيّة الأصوات من أجل حسن الاستماع.

وقد فرّق القرآن بطريقة بليغة ودقيقة بين هذه الحالات الأربع، فحالة السّمع العفوي مثالها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [القصص: 55]، وحالة الاستماع بقصد قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الأحقاف: 29]، أمّا الإصغاء فمثاله قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: 4]، وأمّا طلب السكوت بغرض الاستماع فمثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ [الأعراف: 204].

الإنقاذ والتّخليص والإنجاء:

عموم التخليص وخصوص الإنقاذ والإنجاء من أذى

تتقارب هذه الألفاظ في الدلالة على السّلامة، ويظهر الفرق بينها أنّ التّخليص قد يكون من تعقيد وإن لم يكن أذى، أمّا (الإنقاذ) و(الإنجاء) فلا يكونان إلّا من أذى، ولا يُقال لمن لا خوف عليه: أُنجي أو أُنقذ؛ لأنّه لا يكون ناجيًا أو منقذًا إلّا مما يُخاف[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصت).
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 120.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»